التعليم خارج الصندوق

نشر في جريدة أخبار الخليج بتاريخ 27 يناير 2019

بقلم: الدكتور زكريا خنجي

من الكتب الجميلة التي قرأتها في الآونة الأخيرة كتاب للكاتبة والمعلمة (لوان جونسون) بعنوان (Teaching Outside the Box: How to Grab Your Students by Their Brains) بمعنى (التعليم خارج الصندوق: كيف تستحوذ على عقول الطلاب وقلوبهم ؟).

تقسم الكاتبة المعلمين إلى ثلاث فئات، وهم: استثنائيون، ومتميزون، وجيدون. ثم تقر وتقول «طبعًا هناك معلمون متوسطو المستوى وضعيفون أيضًا، لكن المعلم الضعيف ليس مجالاً للبحث هنا، لأننا لا نعتبر المعلم الأقل من جيد معلما حقًا».

ويعتمد تصنيفك كمعلم على قوتك الشخصية، وعلاقاتك الإنسانية، وأهدافك المهنية، وأولوياتك الفردية. وأنت الذي تقرر ما يشكل أهمية لك، والجوانب التي يجب أن تحتل الأولوية لديك، هل تشعر بالراحة بإسدائك النصائح لطلابك بشأن مشكلاتهم الشخصية، أم تفضل ترك هذه الأمور ليتولاها آباؤهم وأولياء أمورهم؟ ليست هناك إجابة صحيحة

أو خاطئة لأي من هذه الأسئلة، لكن إذا عرفت الإجابة قبل أن تزاول مهنة التعليم، فستكون معلما ناجحًا وسعيدًا.

ويتطلب التعليم الفائق أو الخارق أقصى قدر من النشاط العقلي والعاطفي والبدني. يصل المعلمون الفائقون (الاستثنائيون) إلى المدرسة مبكرًا، ويبقون فيها حتى وقت متأخر، ويحضرون الندوات، ويتطوعون في أنشطة الطلاب، ولا يتأخرون على الطلاب الذين يحتاجون إلى مزيد من المساعدة؛ داخل أو خارج الفصل الدراسي، ولذلك يجب أن تعي أسرهم طبيعة مهنتهم كمعلمين وتقدرها. فإن لم يكن هؤلاء المدرسون فائقين ويمتلكون قدرًا مؤثرًا من الطاقة الطبيعية، أو لم يبذلوا مجهودًا لتجديد أنفسهم باستمرار، فسوف يخبو حماسهم ويتبدد نشاطهم.

بالمقابل يستمتع المعلمون المتميزون بعملهم، لكنهم يضعون حدا للوقت والطاقة التي يكرسونها للتعليم. يهتمون بطلابهم، ويبذلون أقصى ما لديهم لمساعدتهم، لكن ليس على حساب أسرهم. يتطلب التعليم المتميز قدرًا أقل من النشاط مقارنة بالتعليم الفائق والخارق والاستثنائي، وهنا يكون المعلم المتميز معرضًا لاحتمال استنفاد طاقته أكثر من المعلم الخارق والاستثنائي، ويظل بحاجة إلى تخصيص وقت لتحفيز ذاته ودعم أسرته.

أما المعلمون الجيدون فيؤدون وظيفتهم جيدًا، لكنهم يعرفون حدودهم. فهم يفرقون بين الحياة الشخصية وبين الحياة المهنية. يعاملون الطلاب

باحترام، ويبذلون أقصى جهودهم للتأكد من أن الطلاب قد تعلموا المواد اللازمة لانتقالهم إلى المستوى التالي من التعليم، لكنهم لا يشعرون بأنهم ملزمون بمساعدة كل واحد من طلابهم، فهم يغلقون أبواب فصولهم عندما يغادرون المدرسة، ويركزون على هواياتهم وحياتهم الخاصة.

وتحت عنوان (اختر شخصيتك) تقول الكاتبة: الفصل مسرح مصغر يضم جمهورًا مشدوهًا صغير العدد، وطاقم تمثيل أصغر عددًا أيضًا، ألا وهو: أنت، فأنت نجم العرض بالتأكيد. فعندما تقف على خشبة المسرح لأول مرة، قد يبدو جمهورك الصغير كبيرًا بصورة مبهرة. وكلما كان الضوء المسلط عليك أقوى، كلما أسرعت في أسر انتباه جمهورك. وبعد أن تخطف الأضواء، يمكنك أن تشارك طلابك تبادل الأدوار على خشبة المسرح.

وحتى يتقن الطلاب أدوارهم، عليك أن تقف في منتصف المسرح. تكمن مسؤوليتك في قيادة طاقم التمثيل لتحقيق أهدافهم، ويتمثل دورهم في اتباع إرشاداتك، وإن كان من المقبول جدا أن يقترحوا إدخال بعض التغييرات على النص. ونظرًا إلى أنك الذي تلقن الطلاب، فمن المهم أن تقرر قبل أن تصعد على المسرح كيف ستؤدي شخصيتك، فكيف تود أن يراك الطلاب؟ وكيف ستعبر عن نفسك؟

أما التظاهر بأنك شخص آخر فإنها فكرة غير محمودة، ومحكوم عليها بالفشل لأن الطلاب خبراء في تقييم شخصيات معلميهم بسرعة.

سينظرون إلى ملابسك، وشعرك، ولون بشرتك، فانتبه إلى لغة جسدك، وإيماءاتك، وتعبيراتك، ونبرة صوتك. كما أنهم سيلاحظون النظرة التي ترتسم في عينيك عندما تنظر في عيونهم، وبعد أن يصل الطلاب إلى قرار بشأن شخصيتك، ستواجه صعوبة كبيرة في إقناعهم بتغيير نظرتهم. فأيًا كانت الشخصية التي تختارها، يجب أن تكون طبيعية، لأنها الشخصية الوحيدة التي يمكنك الاحتفاظ بها على مدار العام الدراسي الكامل، بل مدى الحياة.

وقبل أن أغلق كتاب التعليم خارج الصندوق لاستكمله من بعض المراجع الأخرى أود أن أنقل جزئية صغيرة من الكتاب التي تشير فيه المؤلفة بقولها: بالمقابل يؤكد المعلمون الفعالون أن أهم ثلاثة عناصر لتحقيق النجاح في التعليم هي: الإعداد والإعداد والإعداد، فإن لم تُعد لكل شيء مسبقًا، فسوف تعاني من الارتباك طوال العام، لأنه ما إن يبدأ العام الدراسي حتى يجد المعلمون أنفسهم يسيرون بأقصى ما يمكنهم من سرعة تحت ضغوط طاحونة التعليم. قضاء أسبوعين في تنظيم الأمور قبل بدء العام الدراسي يسمح لك بالتركيز على أكثر جوانب مهنتك العظيمة إمتاعًا وتحديًا وإشباعًا؛ لطلابك. قبل كل شيء، أنت بحاجة إلى تجهيز غرفة صفك. حيث تؤثر البيئة المحيطة على راحتك وكفاءتك وتفاعلك مع الآخرين. كما يتحمل الطلاب عبء بيئة الفصل التي يهيئها معلموهم، أيا كانت هذه البيئة. بيئة الفصل الدراسي تشكل الفارق بين

غرفة مليئة بأطفال متعاونين ومتحمسين ويتمتعون بالحافز، وبين مجموعة من البكائين الشكائين الساخطين وغير المبالين وغير المشاركين.

ونحن نعلم اليوم كما كنا نعلم بالأمس وسنستمر في أن نعلم أنه لا يوجد معلم مثالي وعملية تعليم مثالية، وكذلك نعلم أن مهنة التعليم ليست من السهولة بمكان وإلا لما كانت مهنة الأنبياء، لذلك فإن هذا العبء كبير، بل كبير جداً لا يستطيع كل البشر حمله، فالمعلمون المميزون أشخاص استثنائيون، لذلك فإننا وبعد كل هذا العمر نجد أنفسنا أننا ما زلنا نتذكر عددا منهم، وهم الأشخاص الذين قدموا لنا الكثير وشعرنا بأننا مدينون لهم بالكثير، وللأسف هناك أيضًا معلمون لا نذكر لهم الفضل بل على العكس فبعضهم نشعر بالأسف لحالهم لما كانوا سيئين لدرجة كبيرة بحيث أنهم أساءوا لأنفسهم قبل أن يسيئوا إلينا كطلبة.

وإن كنا بالفعل في الوطن العربي نريد أن ننمي التعليم ليكون تعليمًا خارج الصندوق فإنه علينا أن نخرج الفئات الأربع الأساسية للتعليم من الصندوق، ونطورهم ونصقلهم ونميزهم إلى أعلى الدرجات، وهم: الطالب، والمعلم، والعملية التعليمية والمناهج وطرق التعليم والتدريس، ولا بد ألا ننسى مباني المدرسة والمنشآت المرفقة بالمدرسة فهي تحتاج إلى إعادة نظر لتخرج من الصندوق المغلق لتصبح يومًا ما خارج الصندوق.

فإن كنا نتحدث عن الطالب في العملية التعليمية فإننا نتحدث عن أحد أهم المحاور الأربعة في العملية التعليمية فهو المركز الرئيسي الذي يُسلّط

عليه الضوء. فالمناهج نفسها ما وضعت إلا من أجله، وما تطورت وتحسنت إلا من أجله، وهذه المنشآت وكل هذه المصاريف والتكاليف إلا من أجل عيون هذا الطالب، لذلك فإن كل أهداف العملية التعليمية تنصب على النمو النفسي والعقلي والجسمي والعاطفي والاجتماعي للطالب، ليصبح في المستقبل لبنة خيّرة من لبنات مجتمعه، وعنصرا فعالا نشطا قادرا على تحمل المسؤوليات والأعباء التي ستلقى على كاهله، ومتفاعلاً مع الأحداث التي تمر به، ومالكًا للمهارات الأساسية التي تساعده في حل المشكلات، ومستعداً للتكيّف مع الظروف التي يعيشها، ومتيقظًا للمتغيرات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية، ومستجيباً لما تتطلبه تلك المتغيرات.

ولكن ما بالنا نجد العملية التعليمية اليوم تهمل هذا العنصر، بل قد أصيب الطالب بالإحباط من جراء العملية التعليمية، فهو لا يعرف ما مستقبله وإلى أين سوف يسير وماذا سينتظره في الغد ؟ أصبح التعليم بالنسبة إليه كارثة وقيودا ليس لها داع، وذلك لأسباب كثيرة ليس هناك داع لذكرها هنا.

أما المعلم فهو الوسيط الذي يستطيع أن ينقل كل هذا الكم الهائل من المعرفة إلى الطالب، وهو الذي بنجاحه ينجح الطالب وبفشله يفشل الطالب، وهو الذي ينقل الطالب من أن يكون إنسانًا متلقيًا للمعلومة إلى إنسان مفكر ومبتكر وعالم، وإنسان مبدع إن شعر هذا المعلم بالتقدير والاهتمام.

فهل حاولنا يومًا أن نفكر في وضع هذا المعلم المادي والاقتصادي والنفسي والوجداني ؟

نحن نطالب المعلم ببذل أقصى درجات الإخلاص والتضحية من أجل الطالب ونجاح العملية التعليمية، ونقول له إنك توليت أشرف مهنة وهي مهنة الأنبياء، وإن الإخلاص في العمل في هذه المهنة ضروري، وإن اللّه سبحانه وتعالى سيحاسبك يوم القيامة على كل ما تفعله في الصف، ولكن هل منحنا هذا المعلم ما يريد ؟ وقمنا بتقييم احتياجاته العلمية والحياتية؟ ودرسنا مدى الرضا والاندماج الوظيفي الذي يشعر به ؟

ثم إن المعلم يتعلم في أكاديميات التعليم أمورا مثالية حول التعليم ونظريات التعليم وطرق وأساليب التعليم، ولكن عندما يدخل المدرسة في أول يوم عمل ويدخل الفصل الدراسي ويواجه الطلبة، فإنه يفاجأ بأن الأعباء التي تقع عليه وما المطلوب منه يختلف تمامًا عن كل النظريات والكتب التي درسها أثناء رحلته التعليمية، فيصاب بالإحباط من أول يوم يدخل المدرسة، فيكره التدريس والمدرسة والطلبة، وكل شيء، فهل هذا المعلم يمكن أن يقدم للطلبة الروائع والإبداعات ؟

وكذلك فهناك جانب آخر، فكم من إنسان دخل أكاديميات التعليم ليصبح معلمًا وهو لا يصلح أن يكون كذلك.

أما فيما يخص العملية التعليمية والمناهج وطرق التعليم والتدريس فقد حدث تغيير كبير فيما يخصها خلال العقود القليلة الماضية وخاصة في مرحلة التعليم الأساسي، وهذا جميل ورائع، ولكن تبقى العملية التعليمية عملية مستمرة ومستدامة لا تنتهي بمجرد تغيير الكتب وتغيير جلدها وألوانها وطباعتها، بل هي عملية تحتاج إلى جهود طويلة وتنوع كبير في طرق التعليم لتتحول العملية التعليمية من عملية تلقين تقليدية إلى عملية إبداعية ابتكارية تبنى – مثلاً – على طرق حل المشكلات أو بعض الطرق الأخرى وذلك بحسب الأنماط الحديثة والطرق الحديثة في التعليم، لذلك فنحن عند إعادة صياغة المناهج وطرق التعليم نحتاج إلى أن نبعد المناهج التعليمية عن فكرة أن يحفظ الطالب الكتاب ليقوم في نهاية الفصل الدراسي بعمل نسخة من هذا الكتاب في ورقة الإجابة، نحتاج إلى أن نبتعد عن فكرة أن الاختبارات هي التي تحدد مستوى الطالب التعليمي وهي التي تحدد مصير الطالب ومستقبله.

وليست الفكرة أن نأتي بالمناهج الأجنبية أو من خارج حدود الوطن ونعيد صياغتها ونلوي أعناقها لتصبح مناسبة لطلابنا، فتلك المناهج وضعت لطلاب يختلفون عن طلابنا، ولبيئة تختلف عن بيئتنا، ومعلمين يختلفون عن معلمينا.

وجانب آخر، وهو يجب أن تتحول العملية التعليمية التي تقوم على أن يقوم المعلم بالتلقين والشرح وكل شيء إلى عملية تعليمية، يكون فعلاً

الطالب محورها، وهو الذي يقوم بالبحث والشرح وعلى الأقل يتحمل جزءا كبيرا من العملية.

على ذلك نشعر بأن المناهج وطرق التعليم أيضًا تحتاج إلى أن تخرج من صندوق التعليم التقليدي لتصبح حرة طليقة، لنوجد جيلاً من الأطفال أكثر إبداعًا وقدرة على الابتكار.

وأخيرًا وربما المحور ما قبل الأخير، نأتي إلى المحور الرابع من العملية التعليمية وهي المباني، ولنعيد التفكير في المباني، فهل يمكن إعادة التفكير فيها ؟ هل يمكن أن ننتقل من الصفوف التقليدية إلى أن تكون الصفوف على هيئة مختبرات مثلاً ؟ بحيث يكون لكل معلم مختبر يمكن أن يضع فيه كل ما يحتاج إليه من وسائل وطرق تعليم وما إلى ذلك من أدوات وإمكانيات ؟ وهذا يعني أن ينتقل الطالب من مختبر أو غرفة معلم إلى غرفة أو مختبر المعلم الآخر بدلا من أن ينتقل المعلم ؟ مجرد فكرة.

وأكيد هناك أفكار كثيرة يمكن إضافتها أو حتى على الأقل التفكير فيها لو كنا نرغب في الخروج بالتعليم من الشكل التقليدي إلى خارج الصندوق، ولكن نحتاج إلى أن نفكر أولاً، ومن ثم نفكر، وبعد ذلك يمكن أن ننفذ.

وأخيرًا، نريد اليوم أن نفكر في اقتصاديات التعليم، ومخرجاته، والنواتج العلمية والعملية التي يمكن أن نجنيها من العملية التعليمية، وعلاقة كل

ذلك بسوق العمل، فنحن نشعر أن التعليم يسير في واد وسوق العمل في واد آخر، وهذا موضوع يمكن التحدث فيه مرات أخرى.